محاكم الطير

قد كان الناس ينكرون العقل في الحيوان الاعجم منذ زمان غير طويل ويزعمون ان افعاله كلها صادرة عن سليقة فيه لا تقبل الترقي ولا الاتساع بالمشاهدة والتجربة . واليوم خالفهم العلماء وحكم كبارهم بوجود عقل في الحيوان الاعجم اوطأ من عقل الانسان رتبةً ولكنهُ مثلهُ نوعًا . وبنوا حكمهم هذا على ما عرفوهُ بالمشاهدة واثبتوهُ بطول الاستقراء . وهم يزعمون ايضًا ان القوى الادبيَّة موجودة في الحيوان الاعجم ولكنها اضعف مما في الانسان وأخفى ظهورًا حتى لا تكاد ترى افعالها فيه الاَّ بعد طول المراقبة . وزعم جماعة ان كثيرًا من انواع الحيوان ولاسيما الاجال والاسراب تفعل افعالاً كثيرة كافعال البشر الصادرة عن ادراكهم للعدالة والحقوق والواجبات . وقالوا ان بعض طوائف الطير تقيم المحاكم فترافع وتقاضى وتحكم وتنفذ احكامها كالبشر على ما سيجيء معنا وما ذلك الاَّ لانها ذات طبيعة ادبيَّة كالبشر . ولم يوافقهم غيرهم على هذا التعليل لقلَّة الاستقراء او لاحتمال تعليل آخر سواهُ

اما الشواهد التي اوردها الفريق الاول على ان الطير قد تقيم المحاكم وتحاكم كالبشر فمنها ما يشاهد في الغربان ذات القنازع التي تكون بجزائر شتلندا . فهذه تجتمع في حقل او على تلّ وينتظر بعضها بعضًا يومين او اكثر عند توانيهِ عن الحضور حتى تجتمع كلها معًا . ثم تفرد اثنين او اكثر منها جانبًا وتقيم عليها غربانًا تحرسها فتمنعها من الفرار ويشرع ما بقي في التعنيق والتعيب جماعات جماعات او كلها معًا مدَّة من الزمان . ثم تهجم على المحجور عليها هجمة واحدة ولا تزال تنقدها وتنقرها بمناقيرها حتى تمزقها كل ممزَّق ويمضي كلٌّ منها بعد ذلك في السبيل الذي جاء منهُ . فالمحجور عليها بمثابة المجرمين والحارسة لها بمثابة الحرَس والجماعات الناعبة والناعقة بمثابة القضاة والحاكمين والمنفذين للاحكام . ولذلك زعم المشاهدون لهذه الفعال ان غربان شتلندا تقيم المحاكم وتحاكم كالبشر

ومنها ما شاهدهُ القس أدمند فُنس في غربان بلاد الانكليز المعروفة بالغدفان قال كنت يومًا راكبًا جوادي فسمعت نعيبًا شديدًا ملأ الآفاق فالتفتُّ واذا غدفان كثيرة في حقل فدنوتُ منها ووقفت حيث اراها ولا تراني وجعلت اراقبها فاذا هي منتظمة في حلقتين حول غدافٍ في الوسط وكلها تنعق وتصفق باجنحتها شديدًا كانها تنقد غيظًا وتهيج انتقامًا والغداف الذي في وسطها ينعق ويصفق مثلها ويقاومها ويخاصمها . والحراس تطير هنا وهناك وكأنها لا تنبه الى ما حولها لاشتغالها بما هو دائر بين رفقائها ولذلك لم تَرَني ولم تنذر بالخطر كجاري عادتها .

وبعد هنيهة تغيّرت احوال الغداف الذي في الوسط بغتةً فنكّس راسهُ وخفض جناحهُ وأقلّ من النعيب كأنهُ اقرّ بذنبهِ فجعل يطلب الصفح عنهُ . وحينئذٍ وثب عليهِ غدفان الحلقة الداخلية ومزقتهُ بمناقيرها تمزيقًا ونعبت الغدفان كلها نعيبًا شديدًا وطار بعضها بعيدًا وبعضها قريبًا اه . والغداف مشهور بالسرقة والاختلاس فتسطو صغارهُ على عشاش كبارهِ وتسرق ما فيها من دقاق الحطب وتبني عشاشها بها تخفيفًا لخفّة جمعها عنها . ولكنها لا تفعل ذلك الاّ اذا كانت الكبار غائبةً عن اعشاشها فلا تراها . ثم متى عادت ووجدت اعشاشها مسروقة لا تزال تبحث عن السارق حتى تعرفهُ فتشكو امرها الى جماعة الغدفان فتبعث ثمانية او عشرة منها الى عش السارق فتخربهُ ولا تبقي لهُ اثرًا

ومنها ما حكاهُ بعض المصعّدين في جبال البا قال كنت يومًا اصعّد في جبلٍ من جبال سويسرا فاتيت مطمئنًا من الارض قد احدق بهِ ستون او سبعون غرابًا بغرابٍ واحدٍ واكثرت من النعيق والتصفيق كأنها تتشاور في امرهِ وكانت تصمت احيانًا فيبتدئهُ هو بالنعيق والتصفيق كأنهُ يدافع عن نفسهِ دفاع المتهمين امام الحاكمين ولا يزال يفعل ذلك حتى تعود جماعة الغربان الى الصياح والغوغاء ويضيع صوتهُ بين اصواتها فيصمت . واستمرّت على تلك الحال مدّةً . وكأنها رأت ثبوت التهمة عليهِ فاعملت فيهِ مناقيرها حتى قتلتهُ ومزقتهُ اربًا اربًا ثم طارت وتفرّقت وغابت عن الابصار

ومن ذلك ما يشاهد في العصافير وهو انهُ اذا تشاجر اثنان منها يذهب احدهما الى جماعة العصافير ثم يأتي اربعة او خمسة منها وتنقضّ على المعتدي وتبادرهُ بالنقد وهي تتوالع بعضها على بعض حتى ينال منها كفافهُ . وكأن جماعة العصافير تصفح عنهُ بعد ذلك فتعامله معاملة مَن لم يرتكب ذنبًا . وحكى الاب بوجان الفرنسوي انّ خطافًا بنى عشًّا فرآهُ عصفور فدخل اليهِ وامتنع فيهِ عليهِ . فاستغاث الخطّاف برفاقهِ فجاءت مئات وحاولت اخراج العصفور منهُ فلم تستطع لانهُ كان محاطًا بالنش من كل جانب وكان ينقد التي تهاجمهُ من الباب نقدًا شديدًا فيصدها ويطردها مولولة من الألم . ولما اعياها امرهُ رجعت عنهُ وظنّ الناظرون ان العصفور قوي عليها ولكنها ما غابت حتى رجعت والطين ملء افواهها فهجمت على المنفذ وسدّتهُ بالطين لتقتل العصفور داخلهُ خنقًا جزاء اعتدائهِ

ومنها ما رواهُ المرسل الفرنسوي لاكروى عن السيطر وهو انهُ كان يومًا راكبًا قاربًا فرأى جماعةً من طائر السيطر المعروف بمالك الحزين ترعى في الماء الضحضاح فتار بها محاذرًا لانها شديدة النفرة والاجتنال واختبأ وراء شجرة بحيث يراها ولا تراهُ . والذي نبههُ اليها شدّة لغوها

ولغطها . فلما وقف لمراقبتها سكتت واحدقت بسبيطر منها من كل جانب ووقف السبيطر بينها لا يبدي حراكًا . ثم عادت الى ما كانت عليهِ من اللغط واللغو وبقيت كذلك مدَّةً . ثم سكتت فجأةً ووثبت عليهِ وما زالت تنقرهُ حتى قتلتهُ . قال لاكروى المذكور وكل مَن رأى ما رأيت يحكم ان السبيطر المقتول تعدَّى شريعة جماعتهِ فحكمت عليهِ بالقتل وقتلتهُ

وروى الكتَّاب عن اللقالق روايات كثيرة تؤيد ما ذكرنا وتدلُّ على ان اللقلاق شديد الأنفة والغيرة على عرضهِ : من ذلك ان جرَّاحًا فرنسويًّا مقيمًا في ازمير رغب في الحصول على لقلق رغبة شديدة فلم يحصل عليهِ واتفق انهُ عثر على عش لقلاقين فاختلس بيضها منهُ وابدلهُ ببيض الدجاج . ولما افرخ البيض اذا الفراخ كلها دجاج لا لقالق فغاب الذكر ثلثة ايام ثم عاد ومعهُ لقالق كثيرة فنزلت كلها واحاطت بالانثى وجعلت تلقلق وتلغط شديدًا ثم وثبت عليها ومزقتها تمزيقًا وطارت ولم يبقَ في العش حيٌّ . ومن ذلك ما رواهُ المطران سنفلي الانكليزي عن لقلاقين في جوار مدينة برلين وهو انهما بنيا عشهما على مدخنة بيتٍ فطلع صاحب البيت يومًا ووجد فيهِ بيضة فاخذها ووضع بيضة اوزٍّ مكانها ولم يشعرا بها . ثم افرخت البيضة اوزَّة فلما رآها الذكر طار وحلَّق فوق العش وهو يلقلق شديدًا حتى غاب عن الابصار وبقيت الانثى في مكانها تربي فرخ الاوزِّ كانهُ فرخها . وبعد ايام سمع اصحاب البيت لغطًا شديدًا في حقلٍ بجانبهم فنظروا واذا جماعة من اللقالق قد اجتمعت معًا واخذت تلقلق شديدًا حتى سدَّت اصواتها الفضاء . ثم صمتت ووقف لقلاق على عشرين ذراعًا منها وجعل يصوت كانهُ يخاطبها ثم عاد ووقف آخر مكانهُ ولقلق لرفاقهِ كالاوَّل وما زالت تفعل ذلك حتى قارب الزوال . ثم طارت كلها معًا طالبة العش واما منها دليل منها هو صاحب العش وكانت انثاهُ ملازمة عشها وهي خائفة خوفًا شديدًا ولا تبدي حركة فلما دنا منها دفعها دفعًا عنيفًا حتى اخرجها من العش ثم انقضَّت اللقالق عليها ومزقتها ومزقت فرخ الاوزِّ معها واخربت العش وطارت . وروى الفس موربس ان بعضهم ابدل بيض اللقالق ببيض الدجاج في عشٍّ والانثى لا تدري ذلك . فلما فرَّخ البيض ورأى اللقلقان ان الفراخ فراخ دجاج اغتاظا ومزقا الفراخ بمقاربها . وحكى آخر ان رجلاً اتى بلقلاق ووضعهُ مع آخر داجنٍ في بيتهِ فقام الداجن على رفيقهِ ونقرهُ نقرًا مؤلمًا حتى اضطرهُ الى الفرار وهو على آخر رمق وبعد اربعة اشهر عاد ومعهُ ثلثة غيرهُ فهجمت على اللقلاق الداجن وما زالت تنقرهُ حتى اهلكتهُ انتقامًا

فاذا صحَّ ما تقدَّم دلَّ على ان بعض الطير قد يفعل فعل البشر في تأديب الظالم وانصاف المظلوم والاقتصاص للبريء من المذنب والله تعالى اعلم